



إلى جانب انشغالاته بأسئلة التغيير والديمقراطية من خلال مقالات "الانتظارية القاتلة" و"مستقبل الملكيات" ... وعمله الدبلوماسي في إطار حفظ الأمن والسلم الدوليين... يفتح الأمير مولاي هشام من خلال هذه الدراسة "قوس الأزمة بعد العراق" ... بعدا آخر للتفكير منصرف إلى الوضع الدولي، لكنه لا يتوقف عند حدود الأزمة العراقية بل يتجاوز ذلك إلى الاهتمام "بعقد ثلاث تمتد على طول القوس: العقدة الفلسطينية اللبنانية، العقدة الإيرانية العراقية والعقدة الباكستانية الأفغانية..."، وبخلاصات تطرح سيناريو "... تخلي الولايات المتحدة الأمريكية عن حربها الإيديولوجية لصالح قيادة واعية وذكية، تقاوض بحذر وعدل من موقع القوة السياسية... والتوقف عن تحويل كل منافس لها خاصة في العالم العربي والإسلامي إلى عدو قاتل".

قوس الأزمة بعد العراق

الأمير مولاي هشام

في البداية أود أن أشكر الذين ساهموا في تنفيذ هذه المحاضرة. لقد تشرفت بالدعوة لإلقاء محاضرة مجلس أمناء جامعة كاليفورنيا، هذا الصرح العلمي الذي حاز سمعة دولية، وأنا سعيد للمشاركة في هذا الجو العلمي الممتاز، حتى وإن كان لفترة قصيرة. في حديثي سأحاول تقديم فهم لما يشعر ويفكر به أبناء منطقتنا تجاه الأحداث الدرامية التي يمرون بها.



بعد الثورة الإسلامية في إيران عام 1979، انجذب الكثير من صانعي السياسات الأمريكية لفكرة، استعادها أحد المسؤولين الأمريكيين والتي تقول أن « هناك إمكانية لاستخدام القوى الإسلامية ضد الاتحاد السوفييتي، فقد كانت هناك نظرية تتحدث عن وجود قوس أزمة وقوس إسلامي يمكن تحريكه لاحتواء السوفييت، وكان هذا مفهوم بريجنسكي «1، فبعد كل هذا، تم استخدام القوى الإسلامية المحافظة لتهميش وهزيمة الأحزاب العلمانية الوطنية واليسارية بدءاً من إيران عام 1954، وربما كان الأصوليون الإيرانيون حافزاً للإحياء الإسلامي «قلب» الاتحاد السوفييتي.

وبناء عليه فقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية بتبني واستكشاف سياسات في الشرق الأوسط ووسط آسيا، كانت أحيانا متناقضة. وفي الوقت الذي كانت فيه أمريكا تعطي أولوية لأهدافها الرئيسية، الانتصار في الحرب الباردة ودعم إسرائيل، تم توجيه السياسة الأمريكية اتجاه الأصولية الإسلامية وحتى اتجاه أي أوضاع عارضتها ودعمتها. وقد حذت الولايات المتحدة دعم العراق خلال الحرب العراقية - الإيرانية من جهة، ولكنها مالت نحو دعم شحنات الأسلحة الإسرائيلية لإيران من جهة أخرى. فقد كان مؤيدو إسرائيل من «المحافظين الجدد» هم الذين دفعوا في اتجاه التحول نحو إيران في تلك الفترة. فقد كان الإنجاز الكبير للسياسة الأمريكية هذه هو تحالفها مع المملكة العربية السعودية وباكستان لإنشاء جيش جهاد عالمي لقتال الاتحاد السوفييتي في أفغانستان. وقد أصبح مفهوم بريجنسكي هذا حرب «جورج كيسي» (قائد القوات الأمريكية والمتحالفة معها في العراق).

في عام 1991، وقد رحل الاتحاد السوفييتي، قامت الولايات المتحدة بحشد تحالف دولي لإخراج الجيش العراقي من الكويت. وقد ردت الدول العربية من سورية إلى المغرب بالإيجاب على هذا النداء والذي قام على قرار مجلس الأمن الدولي. وقد تلفت هذه الدول الكثير من التطمينات من أن هذه الحرب ليست من أجل انقاد دول النفط التابعة، بل لإنشاء نظام دولي عادل، فبعد أن تتم فيه إعادة السيادة للكويت، سينشأ نظام عالمي جديد يتم فيه تطبيق كل قرارات الأمم المتحدة بما فيها القرارات التي تدعو لانسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية المحتلة. بعد السحق السريع للجيش العراقي من الكويت، كانت هناك ضغوط من أجل مواصلة الزحف حتى بغداد والإطاحة بنظام صدام حسين، لكن الأصوات العاقلة انتصرت، وعلق أحدها قائلاً، «إذا أردنا أن نطرح بصدام حسين فعلينا أن ننشر قوات كبيرة - وحين نقوم بهذا ونتخلص من صدام حسين وحكومته، فعلينا بعد ذلك أن ننصب حكومة أخرى في مكانها، ولكن ما طبيعة هذه الحكومة، هل ستكون سنية أم شيعية أم كردية أم نظاماً بعثياً؟ أو ربما كنا نفكر بجلب حكومة أصولية إسلامية؟ وما هو الوقت الذي نحتاجه للبقاء في بغداد لتثبت دعائم الحكومة، وماذا سيحدث للحكومة في حالة ما إذا انسحبت القوات الأمريكية؟ وكما ستتحمل الولايات المتحدة من خسائر في تلك الجهود من أجل الحفاظ على الوضع والاستقرار في وضع غير مستقر أصلاً؟ ولكن رأيي هو أنه سيكون من الخطأ الوقوع في مستنقع داخل العراق 2، والسؤال الآخر الذي يدور في ذهني هو كم من الضحايا الإضافيين الذين يستحق صدام أن نضحى بهم من أجله، والجواب ليس عدداً كبيراً» 3.

لقد كان هذا هو الرأي الحذر المدروس الذي عبر عنه وزير الدفاع في حينه ديك تشيني، فالذين ألحوا على «تغيير النظام» في بغداد كانوا يدعمون فكرة التسديد الأمريكي، حيث كانوا يطالبون بأن تقوم الولايات المتحدة بتوسيع مدى تأثيرها باعتبارها الدولة العظمى والوحيدة في العالم من خلال قواتها العسكرية. وقد وجد الداعمون لإسرائيل والراغبون بإخراج العراق من المعادلة العربية - الإسرائيلية، راحة في العقد الذي فرض فيه الحصار على العراق والعقوبات التي تلت، وقاموا بتنظيم جماعات ضغط مثل «مشروع القرن الأمريكي الجديد»، وتحركوا بسهولة وعلى أعلى المستويات بين

المؤسستين الأمريكية والإسرائيلية، وعملوا بدأب على بناء دعم سياسي للهجوم على العراق في المستقبل، وعندما تحين الظروف.

في الوقت نفسه، وجدوا نوعاً من الراحة عندما قام وزير الخارجية جيمس بيكر بـ«تركيب أسنان» للسياسة الأمريكية الرسمية فيما يتعلق بالأراضي المحتلة حيث تم ركلها بمهارة. وعليه فلن يكون هناك أبداً أي جهد أمريكي لإيقاف التوسع الاستيطاني الإسرائيلي.

أما العملية السلمية التي بدأها بيكر باحتفالات صاخبة، فقد استخدمت بعد عام 1996 لكي تكون غطاء لمضاعفة أعداد المستوطنين في الضفة الغربية. بالنسبة للفلسطينيين كان النظام الدولي الجديد مثل القديم.

بعيدا في الشرق على طول قوس الأزمة، فإن الحرب في أفغانستان لعبت بين أمراء الحرب التابعين للتحالف الشمالي والمتطرفين من طالبان. مع انتهاء الحرب الباردة، مالت نحو المصالح الباكستانية والتي كانت نفسها تتجه نحو الحكم الإسلامي، ومثلت لها أفغانستان الإسلامية عمقا ضد الهند. وكانت المخابرات الباكستانية «أي أس أي» سعيدة لتأكيد انتصار طالبان - وإقامة علاقات مع النظام الناشئ.

المقصود من كل هذا: أنه ولعقود طويلة حتى الأزمة الحالية، كانت السياسات الأمريكية باتجاه العرب والمسلمين آلية، سياسات صنعت لخدمة المصالح الأمريكية، جيوش جيبست، تحالفات أنشئت وحلت، حروب شنت في كل أنحاء المنطقة فوق جثت العرب والمسلمين، لأسباب في العادة لها علاقة بهذا الأمر أو ذلك، وتظهر التناقضات والتراجعات في السياسات اتجاه العراق، إيران، الأصولية الشيعية والسنية، وأيديولوجية الجهاد، الديكتاتورية والديمقراطية، والملكيات المطلقة، عرفات، منظمة التحرير، التوسع الاستيطاني الإسرائيلي والعملية السلمية الخ، كيف تم التعامل مع الاهتمامات العربية والإسلامية باعتبارها عناصر قابلة للتخلص منها «للرمي» بها في سياسات صممت لأسباب أخرى - أيا كانت، لتأمين استمرار تدفق النفط، للانتصار في الحرب الباردة، أو لإظهار قوة وتسيّد أمريكا باعتبارها القوة العظمى الوحيدة، أو لدعم إسرائيل. فعندما يتم تحقيق هذه الأهداف الرئيسية فإن أيا من الاهتمامات العربية أو الإسلامية التي استخدمت لحشد الدعم وضعت على الرف وللأبد.

ليس أكثر إهانة للعالمين العربي والإسلامي من هذه السياسة «الاستخدامية» غير المتوازنة التي تمت معاملتها فيها، ولا توجد هناك كلمات توضح هذا أكثر من رد بريجينسكي المشهور عندما سئل قبل ثلاثة أعوام من هجمات أيلول (سبتمبر) فيما إذا كان يشعر بندم عندما أنشأ حركة جهاد لاستفزاز الاتحاد السوفييتي كي يقوم بغزو أفغانستان «أندم على ماذا؟ ما هو أهم لتاريخ العالم؟ طالبان أم انهيار الاتحاد السوفييتي؟ مسلمون محفزون أم تحرير شرق أوروبا ونهاية الحرب الباردة؟»4، لاشيء يمكن أن يضم مثل هذا الوضع بطريقة غير مريحة: وليس فقط للعالم العربي والإسلامي، أكثر من تجاهل أمريكا لعودها، سياساتها وقوانينها فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، الكثير قيل، وأكرر، وتظل صحيحة: هو عدم استعداد الولايات المتحدة لتحمل مسؤوليتها التاريخية لإنهاء الظلم التاريخي الذي تعرض له الفلسطينيون، وفكرة السماح باستمرار هذا وللأبد، مادامت الحكومة الإسرائيلية أو بعض الدوائر السياسية رضيت عنها، هو المعوق الأساسي والوحيد لتغيير صورة وكثافة النزاعات في كل أنحاء الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، وما يضلّل قوس الأزمة هذا هو موقف عدم الاهتمام بقدرة التحمل للعالم العربي والإسلامي، والمدة التي يتوقع منهما أن يجبرا على القبول بهذا الوضع.

هذا الحقل الذي ظهرت فيه الأحداث التي غيرت العالم خلال الخمسة أعوام الماضية من هجمات أيلول (سبتمبر) التي غيرت المناخ السياسي في الشرق الأوسط إلى غزو واحتلال العراق والذي ترك أثرا أعمق على الجغرافيا السياسية لقوس الأزمة وما بعده وعلينا الآن النظر بعين باردة على تكتل القوى البارزة من هذه الأحداث، وهي قوى مشوشة، غير واضحة وصورتها ليست جميلة. ويمكن أن ننظر إلى ثلاث عقد على طول القوس. العقدة الأولى الفلسطينية - اللبنانية، والعقدة العراقية الإيرانية والعقدة الباكستانية - الأفغانية.

العقدة الإيرانية - العراقية

يمكن أن نبدأ بالمشهد الأكثر درامية، العقدة الإيرانية - العراقية، وكما علق الكثيرون عام 2003، هناك نتيجة واحدة يمكن أن تنتج نصراً أمريكياً: انتقال سريع لدولة غير محتلة مستقرة وديمقراطية وغير تيوقراطية، ونتيجة أقل من هذا تعني إطالة أمد الاحتلال أو المقاومة، أو صعود الأصولية أو الأنظمة الشمولية إلى آخره، كما سينظر إليه على أنه فشل، كانت مقامرة كبيرة، و فقط الشخص الذي يخادع نفسه كان سيرى غير هذا.

حسناً، يجب أن نكون واضحين حول الوضع الآن، وقت خداع النفس أو التصريحات المؤدبة انتهت، أمريكا عانت هزيمة عسكرية وسياسية كبيرة في العراق، أكبر مما كان أحد يتصورها، أحد الجنرالات الأمريكيين المتقاعدين يصف هذا: «أعظم كارثة استراتيجية في تاريخ الولايات المتحدة» 5 هذه الهزيمة هي حقيقة واقعة، لا مجموعة دراسة أو دفع جديد في القوات أو مغامرة عسكرية جديدة في العراق أو أي مكان آخر سيغير من هذه الحقيقة. تستطيع الولايات المتحدة إضافة ضرر جديد أو إطالة أمد معاناتها لكنها لن تستطيع أن تغير الهزيمة إلى انتصار.

من الواضح أن الرابع الوحيد من هذه الحرب كانت إيران، فالسياسة الأمريكية وجل الجيش العراقي واجتثاث البعث، أدت للتخلص من عدو إيران التقليدي في المنطقة، وعززت اعتماد أمريكا على المرجعيات الشيعية في العراق حلفاء إيران فيه. ونتيجة لأفعالها، فالولايات المتحدة الآن تواجه إيران التي تعززت قوتها وليس من موقع قوة عسكرية أو سياسية التي تصورها المحافظون الجدد.

نتائج هذا ذات أثر بعيد على أمريكا وعلى العالمين العربي والإسلامي، ففي العقدين الأخيرين، فقدت القومية العربية ذات التوجه اليساري العلمانية التي قدمت الإطار الأيديولوجي لمقاومة التسيد الغربي، وفقدت أرضية للتيارات الإسلامية التي تجمع توجهات متشددة معادية للإمبريالية في داخل إيديولوجيات دينية محافظة. فالصراعات السياسية المتعلقة بالاستقلال الوطني والمتعلقة بطرق التقدم أصبحت صراعات دينية متعلقة بالثقافة والهوية الطائفية. وكما اقترحنا أعلاه فإن معيار التحول هذا وجد دعماً في بعض الأحيان من الغرب. والآن فإن المغامرة الفاشلة الأمريكية في العراق أعطت إيران فرصاً جديدة لمواصلة مواجهة القومية العربية تحت مظلة الإسلام.

صعود إيران

ينظر غالباً للثورة الإيرانية باعتبارها ظاهرة فارسية أو شيعية، حتى أن بعض أصحاب التوجهات الوطنية داخل الشيعة العرب مثل السيستاني في العراق وفضل الله في لبنان لديهم تحفظاتهم الخاصة من إيديولوجية «ولاية الفقيه» في إيران، ولكنهما الآن يجدان راحة في قوة إيران الجديدة. فأيران الصاعدة تنافح عن جبهة الصراع الجديدة التي تجمع القومية العربية بمد المقاومة الإسلامية المتصاعدة، مما يضع إيران في مركز العاصفة في الشرق الأوسط وبخيارات متعددة، فهي قد تؤدي إلى تسهيل خروج الأمريكيين من العراق أو قد تصعب الحياة وتجعلها كريمة بالنسبة لجنودها في العراق، وقد تمد شريان حياة للفلسطينيين من خلال دعمها لحماس، كما أن تأثيرها يمتد إلى المناطق التي تعيش فيها غالبية شيعية في المناطق المنتجة للنفط في الجزيرة العربية والخليج، إضافة إلى هذا فأيران ستقوم بملء الفراغ الكبير في معادلة القوة في المنطقة والتي ظهرت بسبب تدمير الدولة العراقية، لقد أصبحت إيران دولة خط مواجهة ولديها القدرة على التأثير على الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، و التأثير وتغيير طبيعة الانقسام السني - الشيعي الذي يمتد لقرون.

وحقيقة أن كلا من الولايات المتحدة وإسرائيل، سواء معا أو كل على حدة، حولتا نظرهما إلى التهديد باتجاه إيران يؤكد الأهمية الاستراتيجية الجديدة لإيران، وتعزز موقعها كطليعة المقاومة لكل العالم العربي والإسلامي، ومهما كانت الطريقة التي تفكران بها فإنه من الصعوبة بمكان رؤية كيف ستحصل أمريكا وإسرائيل على منفعة ذات أمد بعيد من خلال الهجوم على إيران. لا توجد إمكانية لتوجيه ضربات خارج الضربات الجوية وعمليات محدودة تقوم بها القوات الخاصة، قد تؤثر هذه الضربات على إيران إلا أنها لن تدمر النظام الإيراني، على العكس فإنها ستقوي عزمته. ولأن الأمريكيين والإسرائيليين يعرفون هذا، ولأنهم قد يفكرون أنه من الواجب منع إيران من أن تتولى الدور الإقليمي القوي الذي تحضر نفسها له، فإن هناك إمكانية أن تشمل الهجمات على إيران أسلحة نووية.

هذه الإمكانية طرحها الرئيس الأمريكي ونائبه، وتم الكشف عنها في الأعلام ونسبت إلى مصادر عسكرية6. هزيمة أمريكا في العراق، وإسرائيل في لبنان أدت لتلاشي الخوف من هزيمة محتومة، والذي كان وراء التحريض على عدم المقاومة.

والتفكير هو أن استخدام الأسلحة النووية ربما يكون الوسيلة الوحيدة، بدون الحاجة للاعتماد على قوات كبيرة، لتحقيق التدمير المنشود الكفيل بالحد من قدرات إيران على التأثير - وكذلك إعادة تشكيل توازن الرعب في المنطقة.

هجوم كهذا سيكون حماقة كبيرة، حتى لو كانت أمريكا قادرة على تدمير الدولة الإيرانية، ولن تكون قادرة، فالنتائج ستكون عدم استقرار إقليمي وعزلة دولية قد تؤدي لإنتاج مخاطر غير مسبوقة لهم، الجيشان الأمريكي والإسرائيلي قادران على إحداث الكثير من الدمار إلى أن التدمير ليس نصراً، فالضعف السياسي سيقود في النهاية إلى الهزيمة، أيا كان الطرف الذي يملك أحسن الأسلحة.

الانقسام السني - الشيعي

استراتيجية أخرى، قشرية وفيها نوع من الدهاء ثم تعويمها وتطمح للحد من صعود إيران، وهي استغلال الانقسام السني - الشيعي بمساعدة السعودية. وهنا فهناك توجهان متناقضان يتم الحديث عنهما فيما يتعلق بالانقسام السني - الشيعي، فهناك ميل افتراضي نحو التعاون، خاصة منذ الحرب في لبنان والتي أظهرت التقارب الإيراني السني، حماس وحزب الله، وجعلت من حسن نصر الله بطلا في كل أنحاء العالم العربي، العلماء المعروفون من أهل السنة، قاموا بالإعلان أن الخلافات السنية - الشيعية هي خلافات ثانوية وليست أساسية، في الفروع وليس في الأصول. مضت قرون قبل أن يعلن العلماء السنة صراحة الطبيعة الإسلامية الأساسية في التشيع وثانوية الخلاف، هذا في اتجاه، وفي اتجاه آخر، فهناك توتر يظهر في مناطق أخرى من المنطقة، خاصة في العراق حيث أدى تغير صعب في علاقات السلطة إلى أن يتحول إلى عامل إيقاد للعنف الطائفي، وتفاقم بشكل أكبر في مسرح الانتقام الطائفي والإهانة التي رافقت إعدام صدام حسين. هذا بالإضافة إلى أن السكان الشيعة، المتمركزين في مناطق استراتيجية في كل أنحاء العالم العربي تعرضوا لمعاملة سيئة باعتبارهم مواطنين منبوذين، صار ينظر إليهم باحتقار، مما يشعل غضبهم الذي قد يؤدي إلى مشاكل لعدد من الأنظمة.

المصرف السعودي وجيش الجهاد العالمي

وعليه هناك تفكير أن السعودية قد تتحول إلى مصرف وممول لحركة سنية واسعة في المنطقة للتصدي لصعود الشيعة الهراطقة. فالسعودية تشعر بالخوف من منظور حصول العقيدة الشيعية وسياسة الجمهورية الإسلامية على تأثير في المنطقة، وعبرت عن تعهدا بدعم السنة العراقيين إن اقتضى الأمر. هل تستطيع السعودية ودول الخليج ومصر والأردن والأكراد والعراقيين واللبنانيين السنة وفتح وبمساعدة من أمريكا وإسرائيل لمواجهة التأثير الإيراني الشيعي والعلوي السوري وحلفائه حزب الله وحماس في فلسطين؟ من المؤكد أن تقوم المصادر المالية السعودية والخليجية بتقديم الدعم المالي للمتشددين السنة. ولكنهم سيتعرضون للضغوط لكي يقدموا شيئاً يوازي قوة إيران. ومن أجل الحصول على مصداقية سياسية فسيتحتاجون إلى تقديم شيء، قرار يتعلق بالقضية الفلسطينية ينظر إليه في كل أنحاء العالم العربي على أنه عادل. وسيكون من حماقة أن يدخل السعوديون هذه اللعبة بدون هذا الإنجاز في رصيدهم. ومع ذلك فالأمريكيون والإسرائيليون لن يقوموا بتقديم هذا الإنجاز لأن الإسرائيليين على الأقل يلعبون هذه اللعبة لكي يتجنبوا تقديمه.

هذه في الحقيقة وصفة لحرب أهلية داخلية بين المسلمين في كل أنحاء الشرق الأوسط، وأولئك الذين سيشاركون فيها سينظر إليهم على أنهم قوات بالوكالة تقوم بتمزيق مجتمعاتنا نيابة عن أمريكا بطريقة ينظر إليها على أنها لحماية المصالح الإسرائيلية. ومن ستكون هذه القوى السنية المعادية للشيعة التي ستلقى تمويلاً من السعوديين والخليجيين، في العراق. وستراقب الدوائر الغربية وحتى الرأي العام الأمريكي، بنوع من الدهشة أن حكومتهم تقوم مرة أخرى ببناء جيش جهادي سلفي، قاعدة، ولكن باسم آخر. نعم فهذا السيناريو سيجلب الخراب على العالمين العربي والإسلامي، ولن يحقق النصر ولكنه سيكون عاملاً لأزمة كبيرة لكل من أمريكا وإسرائيل.

مجرد التفكير بهذه الإمكانيات يشير إلى الديناميكية الخطيرة التي تتحرك، وخرافة أولئك الذين يبدو أنهم يدعونها ويلتزمون بها، وهو ما يطلق عليه المحافظون الجدد «التدمير البناء»7 ولكن معلقاً ذكياً أطلق عليها اسم «نحر الدول»8، ولا شيء إبداعياً فيها.

بالتحول إلى النقطة الساخنة لبنان وفلسطين، يبدو أن الولايات المتحدة قد تبنت هذه الاستراتيجية - على الأقل من خلال القبول بها، ويمكن فهم هذا، بالحكم على الأثر وليس النوايا، ويجد العرب والمسلمون صعوبة تجاهل حقيقة ان إستراتيجية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط ليست تصليح الدولة الفاشلة ولكن إنتاجها.

والأحداث التي رافقت حرب الصيف في لبنان تلخص هذه المشكلة، نعم اسر حزب الله لجنديين إسرائيليين كان عملا استفزازيا - ولكن دعوني أكن واضحا إن إطلاق صواريخ حزب الله على أهداف مدنية عمل غير مسؤول مثل ضرب إسرائيل للبنية التحتية. يجب أن نكون واضحين أيضا إن هناك مبدأ التساوق بناء على القانون الدولي يجب اعتباره، فعمل حزب الله كان أمرا عرضيا في سياق القضايا الطويلة المتعلقة باحتلال الأراضي اللبنانية، والاجتياحات الإسرائيلية المستمرة والطلعات الجوية فوق الأراضي اللبنانية، ورفض إسرائيل الإفراج عن السجناء اللبنانيين المعتقلين منذ عام 2004، الكل كان يعرف أن طرح موضوع السجناء كان فعلا تكتيكيا، ولا أحد يصدق كان وراء الطلقة الأولى في الهجوم على البنية التحتية، هل يصدق أحد أن حزب الله والجيش اللبناني كانا يخططان لغزو إسرائيل أو تفجير الطرق والجسور، مولدات الطاقة الكهربائية وإطلاق سراح أسراهم، هل يعتقد أحد أن هذا مبرر؟

نعم هذا ما فعلته إسرائيل بمباركة أمريكية، وكما علق مجموعة: حقيقة تدمير البنية التحتية التي تعتبر جزءا من عملية إعادة اعمار كاملة قام بها رفيق الحريري في أقل من 48 ساعة وبأسلحة أمريكية، هو تعليق حزين على غياب السياسة الأمريكية الحقيقية ليس فقط في لبنان بل كل دول الشرق، ولم يكن أي من الأفعال العسكرية مفيدا لإسرائيل 9. دفعت الولايات المتحدة ثمنا باهظا جراء الدور الذي لعبته في هذه الحرب. وكان منظر رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة وهو يبكي مناشدا الولايات المتحدة التدخل ومنع إسرائيل من تدمير بلده، والرد البارد الذي تلقاه من أمريكا، يمكن أن يكون نقطة تحول في علاقات أمريكا مع العالم العربي، موجبة ضربة للدعاء الأمريكي عن الوسيط العادل. حركة الرابع عشر من آذار (مارس) التي انطلقت من خلال دعم أمريكي ل«ثورة الأرز»، وتم الترحيب بها باعتبارها الإصلاح الديمقراطي الذي أملت من خلاله أمريكا تعزيزه في العالم العربي. كان السنيورة صديقا لأمريكا كأي رئيس وزراء لبناني قبله، ولكن في وجه الرغبة الإسرائيلية لتلقي لبنان درسا، فلن يحصل السنيورة على الدعم الأمريكي.

بكلمات أخرى، أدارت الولايات المتحدة ظهرها لزعيم صديق يمثل ديمقراطية هشة - دولة لم تكن تمثل تهديدا لأمريكا أو إسرائيل، من أجل دعم الهجوم الإسرائيلي الشامل. ولم يصدر عن أمريكا أو أي سياسي بارز أي انتقاد للعدوان الإسرائيلي. كما حجبت أي محاولة لوقف إطلاق النار، وسارعت إلى تزويد إسرائيل بشحنات أسلحة جديدة أثناء الحملة. كان عميقا الانخراط الأمريكي لدرجة أنها سمحت للإسرائيليين كي يستخدموا مخزون الأسلحة الأمريكية والمعدات التي خزنتها في إسرائيل - على افتراض قيام القوات الأمريكية باستخدامها في حالة الطوارئ - في هجماتهم على لبنان. كما ضاعفت أمريكا من المخزون الطارئ، على أن تقوم إسرائيل باستخدامها في هجمات يرغون بإطلاقها في المستقبل، كما قدمت أمريكا لإسرائيل مساعدة إضافية (4.5 مليار دولار) كضمانات لمساعدة إسرائيل دفع مستحقات حرب الصيف الماضي 10.

أسلحة أمريكا كانت من ضمن ثلاثة مليون من كتل القنابل العنقودية التي أسقطت على لبنان، تم إسقاط 90 بالمائة منها في ال 72 ساعة الأخيرة من الحرب، وعندما كان الجميع يعرفون أن وقف إطلاق النار بات محتوما، حتى أن قائدا إسرائيليا اعترف قائلا «ما قمنا بعمله كان جنونا ووحشية، قمنا بتغطية بلدة كاملة بالقنابل العنقودية» 11.

هذه السياسات قد تمر بدون أن يعلق عليها أو يبيتها الإعلام في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنها تبث وتناقش بشكل واسع ومفصل في الإعلاميين الإسرائيلي والعربي. أخشى انه بعد هذه الحرب فانه سيكون من الصعوبة بمكان إقناع العالمين العربي والإسلامي وليس فقط العالمين العربي والإسلامي/إن الولايات لن تقوم بخيانة حليف ظاهر، وتجاهل مبدأ يزعم انه من أجل دعم إسرائيل في أي عمل ترغب بالقيام به.

النتيجة هذه لم تكن تعبر فقط عنما وصفه السنيورة بأنها «تدمير لا يمكن تخيله للبنية التحتية المدنية في لبنان» 12، ولم تكن فقط ضربة لموقف أمريكا ووضعها في الشرق الأوسط، إنها أيضا، كانت بمثابة أضعاف لحكومة السنيورة نفسها. فحزب الله يطالب الآن بدور أكبر في «حكومة الوحدة الوطنية» في «ثورة أرز» معاكسة يقوم حزب الله بتنظيم مظاهرات شوارع سلمية وضخمة ومنظمة، في تقليد ساخر لأساليب وتكتيكات قام بالثناء عليها وتشجيعها الغرب والولايات المتحدة. صار من السهل على حزب الله أن يصور السنيورة كرئيس وزراء ضعيف وغير قادر على الدفاع عن أمة من تعطرس إسرائيل وداعمتها أمريكا. في سياق الصراع الداخلي على السلطة وضمن مفهوم «ليست معنية بالظهور بمظهر من يدعم طرفا على آخر» تقوم الولايات المتحدة الآن بمضاعفة دعمها للجيش اللبناني، الذي كثف عمليات تجنيد وتنظيم أفراد من السنة والدروز اللبنانيين 13. منط الولايات المتحدة من كل هذا هو تعزيز قوة الجيش ليكون قادرا على نزع أسلحة حزب الله. ومن هنا فسيكون بمقدور حزب الله أن يتهم قائلا أن هذا سيساعد على خلق ظروف لاندلاع

حرب أهلية، ويظهر أمريكا وحكومة السنيورة لا يمانعان من استخدام الجيش ضد المواطنين اللبنانيين وليس الدفاع عنهم ضد الغزاة الأجانب.

هزيمة إسرائيل

النتيجة، التي أجادل لصالحها، هي أن هجوم إسرائيل على لبنان، مع انه خلف وراءه الدمار الكبير، لكنه انتهى بهزيمة، وكما هو واضح كان هزيمة سياسية، خارج إطار الخطاب السياسي الضيق الأمريكي، فقد نظر لأعمال إسرائيل باعتبارها عدوانا شائنا. وبالنتيجة تبدو إسرائيل الآن معزولة في المنطقة وفي العالم. وكانت هذه أول هزيمة لإسرائيل منذ أمد طويل، فقد امتلك حزب الله معلومات استخباراتية وتكتيكات أحسن، فلم يفقد حزب الله القدرة على التواصل مع أفراد، أو مواصلة بث الرسائل عبر التلفاز والراديو للمواطنين اللبنانيين بشكل عام، أو تكبيد الغزاة خسائر كبيرة. 14

ولم يكن بوسع الإسرائيليين تحقيق أي من أهدافهم، من نزع أسلحة حزب الله أو إطلاق سراح الجنديين اللذين أسرهما مقاتلو حزب الله.

والسؤال المائل الآن أمام إسرائيل فيما يتعلق بلبنان، كما هو مع أمريكا في العراق، هو إن كانت إسرائيل وأمريكا ستقبلان بالهزيمة، أو من خلال مضاعفة القوة العسكرية لتحقيق بعض أهدافهما، أو حتى إرجاع بعض القدرة على الردع. هل هذه الهزائم هي نذر الجيل الرابع من الحروب؟ أو أنها نكسات مؤقتة قابلة للإصلاح عبر استخدام قوة فاعلة وجديدة. هناك شيء واحد مؤكد: إن نموذج الحرب في صربيا وحرب الخليج باعتبارهما انتصارات مجانية وخالية من الضحايا، التي تتحقق عبر استخدام القوة العسكرية ذات التقنية العالية. هذا النموذج لم يعد قائما. فالمعارك الجديدة هي كلها عن السيطرة والتحكم الطويل بالسكان والحصول على ولائهم. في هذه النزاعات، لم تعد القوة الجوية أيا كانت قدرتها على التدمير قادرة على تحقيق النصر الحاسم، ولا الاستقرار الدائم، وثمنها باهظ.

إن تدمير البنية التحتية المدنية للبلد، وزعزعة الانسجام الاجتماعي والسياسي له، وخلق ديناميكية تقود إلى الصراع الطائفي والحرب الأهلية: خاصة انه عندما تم تفعيل هذه الديناميكية في العراق، تركت آثارا رهيبية غير متوقعة. وعندما يتم وضع نفس العناصر في لبنان فإننا قد نعتبرها مصادفة، وعندما يتم الكشف عن نفس الديناميكية في سياق سياسي ثالث وفي نفس المنطقة، فلسطين، سيطلق عليه الكثير من المراقبين بأنه تحول لنمط، هذه على الأقل ملاحظات عرضية في هذا الاتجاه .

غيتو قدر محاط بسياج كهربائي

إن الوضع في الأراضي الفلسطينية هو كارثة إنسانية على قاعدة كبيرة، كارثة يمكن أن تؤدي لمفاقمة الأزمة وتوسيعها التي يتم إذكائها الآن في لبنان والعراق. يعتقد الإسرائيليون أن من حقهم القيام بما يرغبون عمله في الأراضي الفلسطينية، ومنذ «فك الارتباط»، الذي أقامت إسرائيل الدنيا وأقعدتها حوله، عامل الإسرائيليون غزة على أنها ليست إلا منطقة «حرة» للقصف وإطلاق النار. ومنذ انتصار حماس في انتخابات كانون الثاني (يناير). انضمت أمريكا وأوروبا إلى إسرائيل لتجويد وإجبار الفلسطينيين على رفض حكومتهم المنتخبة ديمقراطيا. النتائج الواضحة لهذه الحملات كانت انهيار النظام الاجتماعي والانحدار نحو دوامة الحرب الأهلية. وكما صور كاتب صحافي أمريكي ذكي الصورة الفظيعة لما يحدث:

«يعيش الفلسطينيون في غزة داخل غيتو مكتظ وقذر، محاطون بالجيش الإسرائيلي وسياج كهربائي ضخم، ليس بإمكانهم الخروج أو الدخول للقطاع ويتعرضون يوميا للهجمات. الجهود الإسرائيلية المحكمة لتدمير النظام والقانون وتعزيز الفوضى والجوع الرهيب، واضحة في شوارع مدينة غزة، حيث يمر الفلسطينيون من جانب أنقاض وزارة الداخلية الفلسطينية، ووزارة الخارجية والاقتصاد الوطني، وتعرض مقر رئيس الوزراء وعدد آخر من المؤسسات التعليمية لقصف جوي إسرائيلي. وتم مسح وتدمير محطة توليد الطاقة الكهربائية التي تزود القطاع بنسبة 45 بالمائة من الطاقة الكهربائية، وحتى شبكات الكهرباء والمحولات البدائية لم تسلم من القصف المتكرر. وتم تدمير ستة جسور تربط مدينة غزة ببقية أطراف القطاع، ومحيت معها الكثير من شربانات الحياة. وبنفس السياق تنحدر الضفة الغربية إلى أزمة بمستوى ما يحدث في غزة. ماذا تعتقد أمريكا وإسرائيل أنهما ستحققان عندما تحولان غزة والضفة الغربية إلى نسخة

مصغرة عن العراق، هل تعتقد انه من خلال خلق «كابوس هوبسي» (نسبة للفيلسوف هوبس) للفلسطينيين يمكن ثنيهم عن الإرهاب، والحد من العمليات الانتحارية وتعزيز السلام؟¹⁵.

الأمل هو أن لا تصبح فلسطين أو لبنان نسختين مصغرتين عن العراق، إلا أن الأشكال واضحة، ففي تحايل واضح وهو ما أثار اهتماما في الإعلام الإسرائيلي، تقوم الولايات المتحدة بمساعدة إسرائيلية بتزويد قوة 17 في غزة المرتبطة برجل فتح القوي محمد دحلان بأسلحة متقدمة، وبحسب المسؤولين الأمنيين الإسرائيليين والفلسطينيين، فقد أدت شحنات الأسلحة إلى تنافس للتسلح من جانب حماس¹⁶.

أيا كانت النية، فمنطق الانقسام الاجتماعي والحرب الأهلية يتكشfan عبر السياسة الأمريكية في ثلاث مناطق كانت إسرائيل تعتبرها مناطق «مقاومة» تقف في وجه طموحاتها. فقد دعت الورقة الشهيرة التي أعدت عام 1996 لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو والتي كتبها عدد من المحافظين الجدد الذين شكلوا السياسة الأمريكية في عهد بوش إلى تحول واضح «نظيف» من الشعار المعروف «سلام شامل» لمفهوم تقليدي يشير إلى إستراتيجية تقوم على توازن القوة، وأوصت ان هذا يتم تحقيقه من خلال إزاحة صدام حسين عن السلطة في العراق ومواجهة قوية مع حزب الله وسورية وإيران، وبشكل عام زعزعة والحد من التهديدات الخطيرة - وفيما يتعلق بهذه الإستراتيجية فقد أنجزت المهمة، وإذا كانت الورقة «تحول نظيف أو واضح» قد دعت إلى زعزعة التهديد الفلسطيني من خلال رعاية بدائل عن سيطرة عرفات القوية على المجتمع الفلسطيني، فهذه الإستراتيجية تحتاج اليوم إلى إعادة تسليح فتح ضد الخيار الذي قامت (الإستراتيجية) بتعزيزه.¹⁷

إستراتيجية الدمار

قوام الإستراتيجية هو زعزعة الاستقرار، ومن المفهوم انه يوجد داخل المركز المتشدد في الصهيونية اليمينية من يعتقدون انه يجب إخضاع الفلسطينيين في الداخل أو ترحيلهم من كل الأراضي الفلسطينية التي تريد إسرائيل السيطرة عليها، والذين يعتقدون ان هذا ممكن التحقيق لو تم إضعاف كل جيران إسرائيل المتمردين بمن فيهم الفلسطينيون بحيث يفقدون القدرة على المقاومة. وهذا مفرع، مع انه ليس مثيرا للدهشة، رؤية هؤلاء المتشددون يحتلون مواقع جديدة في الحكومة الإسرائيلية، انه أمر صادم، ومجرد التفكير أن الولايات المتحدة ستسير، علاوة على أن تضع نفسها في مقدمة الداعمين لهذه الإستراتيجية المدمرة والتي تحمل دمارا ذاتيا من اجل مواصلة الدفاع عن مفهوم مضلل لما يعنيه أن تكون صديقا لإسرائيل.

ومع ذلك تبدو هذه الإستراتيجية في بعض الأحيان التفسير الوحيد، أكثر من كونه عجزا كبيرا غير واضح، لسلسلة من القرارات المتناقضة وذات الأثر السلبي التي اتخذتها الولايات المتحدة، وان أمريكا تتبنى هذه الإستراتيجية، أو يظهر للكثير من الناس أن أمريكا تبنت هذه الإستراتيجية، هو اكبر أمر مثير للقلق اليوم في العالم العربي والإسلامي، وليس فقط في العالمين العربي والإسلامي - وإذا كان هذا صحيحا فإنها ستكون اكبر تهديد على العالم اليوم. ويجب هنا التأكيد على أن اتباع هذه الإستراتيجية هو على الأقل خطير للولايات المتحدة وإسرائيل مثل خطورته على أي من الأهداف، والأصدقاء لا يساعدون بعضهم على تدمير أنفسهم.

وأمریکا بحاجة ملحة لمناقشة هذه الأمور بشكل مفتوح، وان تفهم أن دعمها غير المشروط لإسرائيل لا يصب في مصلحتها أو مصلحة إسرائيل، ولمنعها من الانحدار نحو هذا الطريق، وإذا كانت أمريكا، فعلا صديقة لإسرائيل، فعليها أن لا تقاوم فقط أي دعوة للسير في هذا الطريق، بل عليها أن تضع كل المعوقات السلمية الكفيلة بمنع إسرائيل من الانحدار لهذا الطريق. وكما أشار إلى هذا معلق إسرائيلي:

سياسات إسرائيل لا تشكل تهديدا على الفلسطينيين فقط ولكن على الإسرائيليين أنفسهم، دولة يهودية لا يتجاوز عدد سكانها 7 ملايين (منهم 5,5 ملايين يهودي)، ومحاطة بمنتي مليون عربي تقوم بوضع نفسها في مواجهة عدائية مع العالم الإسلامي كله، ولا يوجد أي ضمان من أن هذه الدولة ستبقى - إنقاذ الفلسطينيين يعني إنقاذ الإسرائيليين أيضا¹⁸.

على إسرائيل أن تختار، هل ستحقق إسرائيل الأمن في المنطقة عبر إجبار جيرانها على الاعتراف بسيادتها، عبر الاستخدام الدائم للقوة العسكرية، المشفوعة بالدعم المالي والعسكري غير المحدودين من القوة العظمى الوحيدة في العالم؟

أو انه تحقيق أمنها من خلال إنشاء علاقات احترام متبادلة مع جيرانها؟ تبدأ مع الفلسطينيين. الخيار الأول، يقتضي عمليات ضغط سياسي ولوبي للسياسيين الأمريكيين ومراكمة أسلحتها النووية والتقليدية من اجل إبقاء جيرانها ضعافا. أما الخيار الثاني فيقتضي الاعتراف بالظلم الذي ارتكب ضد الفلسطينيين والاعتراف بحقوقهم والتفاوض حول حدود عادلة وأمنة بناء على القانون الدولي، وتخفيض مستوى العنف من خلال التفاوض على تخفيض عمليات التسلح، بما في ذلك التخلص من أسلحتها، ومنع ترسانات الأسلحة. الخيار الثاني قد يكون صعبا بالنسبة لإسرائيل كي تتساق معه، لكن الخيار الأول وهو المفضل لإسرائيل منذ عقود، قد استنفد حياته واستخداماته النافعة.

أفغانستان، الباكستان

إذا كانت الولايات المتحدة تحصد دوامة الهزيمة والنقمة، التي جاءت بسبب أفعالها، فبعيدا في الشرق على طول قوس الأزمة، فإنها (الولايات المتحدة) تواجه نسخة أخرى، حرجة ومرحجة. فمحاولة التقليل من تماسك عدوها، والتبسيط في فهم التحديات الثقافية والسياسية لبلد اكبر وأكثر كثافة سكانية من العراق، والاستعداد لتحويل الانتباه نحو جبهة أخرى إلى اتجاه، في الوقت الذي تعتمد فيه على قوة إقليمية أخرى لها أجندة معقدة وغير متطابقة، فان أمريكا وحلف الأطلسي (الناطو) يواجهان تحديا كبيرا في أفغانستان.

بعد هجمات أيلول (سبتمبر) 2001 لم يشكك أحد بحق أمريكا بملاحقة أسامة بن لادن والقاعدة من خلال القوة، والقرار بالإعلان عن حملة عسكرية واسعة بمساعدة الناو من اجل إعادة تشكيل سياسة بلد، أمر محفوف بالكثير من المشاكل، فالنجاح يقتضي نصرا عسكريا حاسما، يتبعه التزام مالي وسياسي دائم من اجل تحقيق الإصلاح الاجتماعي. هذه الإستراتيجية تعتمد أيضا على شركاء صادقين ومحترمين محليين والملمنزمين بشكل متساو بالإصلاح الاجتماعي.

في الواقع اعتمدت الولايات المتحدة على أمراء الحرب من أعضاء التحالف الشمالي من اجل تحقيق نتائج سريعة في الميدان، وقامت باستيراد رئيس من اجل «رصف» حكومة مركزية في كابول. كان أمراء الحرب حلفاء متقابلين، حيث أعطى فسادهم وقسوتهم مصداقية لطالبان، ولم يكونوا هم أو كرازي بقادريين على تبرير تواصل العمليات العسكرية الغربية على أنها جزء من أجندة جذابة وذات معنى للم شمل الجماعات القبلية المستقلة والولاءات الاثنية التي تميز الوضع الأفغاني.

وما أدى لسوء الوضع أيضا هو فشل الولايات المتحدة في التخلص من القادة البارزين في القاعدة أو طالبان، وقامت أمريكا بتحويل قوات مهمة كانت تلاحق بن لادن للعراق في لحظة حرجة. وكان واضحا، انه على الرغم من صلتها الواضحة بهجمات أيلول (سبتمبر). والحرب المعلنة على الإرهاب، فان أمريكا اعتبرت أفغانستان بلدا ثانويا من ناحية الأهمية. وقد تجاهل الإعلام الأمريكي أفغانستان مفضلا للعراق عليها، كما أن التقدم أو عدمه لم تتم تغطيته بشكل عام في الاعلام الأمريكي.

ونتيجة لذلك واصل بن لادن والظواهري إصدار أشرطة الفيديو، كما أن اتباع طالبان الذين حافظوا على علاقات جيدة مع قبائل البشتون على طرفي الحدود بين أفغانستان والباكستان أعادوا تنظيم صفوفهم بقوة، وصاروا يمثلون تهديدا حقيقيا لقوات الناو. فقد قام الفرنسيون بسحب أحسن قواتهم من أفغانستان، وليس معروفا كم هي المدة التي سيحافظ فيها حلف الناو والدول الأخرى على قواتهم، أو ماذا ستكون فاعليتهم أو أثرهم على الوضع. وجود قوات محجوزة في المعسكرات بدون مساهمة في إدارة البلاد، وتخرج فقط من اجل تنفيذ هجمات وعمليات عسكرية، يؤدي لخلق وضع سياسي وعسكري غير محتمل مما يعني بقاء المبادرة في يد طالبان. فقد ذهب وزير الخارجية الباكستاني لحد أن يطلب من الناو الاعتراف بالهزيمة و مغادرة أفغانستان 19.

لعبة الباكستان

إن المحاولة الأمريكية الخرقاء للتخطيط أو هندسة معركة تبدو نبيلة (مقنعة) وسهلة بينها وبين القاعدة تعثرت ليس في تعقيدات السياسة القبلية وسياسة أمراء الحرب، ولكن في لعبة خطيرة ومعقدة تلعبها الباكستان مع الأصولية الإسلامية. فمنذ عودة الحكم العسكري للباكستان، تبنت الحكومة الباكستانية ومخابراتها (اي اس اي) الأصوليين الإسلاميين وحاولتا السيطرة على عدد من الراديكاليين الإسلاميين لتحقيق أهدافها الخاصة. فطالبان التي تجمع بين الهوية القبلية البشتونية والهوية الإسلامية، نظر إليهم كسلاح جيد ضد القوميين البلوش والتأثير الإيراني. فإيران التي كانت تعارض طالبان قدمت دعما تكتيكيًا للأمريكيين والتحالف الشمالي بعد أيلول (سبتمبر) وتساعد في إعادة أعمار البنية التحتية في أفغانستان 20.

ومن هنا فباكستان قلقة من تزايد هذه القوة «الليبية» لإيران، طبعاً، يظل مصدر الباكستان الرئيسي هو الهند وكشمير. ومن هنا تنتظر الباكستان للجماعات الإسلامية المحلية ودعمها للقضية الكشميرية، وتنتظر لحلفائها طالبان بدون القاعدة كمصدر لعمق استراتيجي ضد جارتها الهندوسية القوية. بالنسبة ل (اي اس اي) والمؤسسة السياسية فقد أضحت التحالف مع الإسلاميين جزءاً بنويوا في الإستراتيجية الإقليمية، وخلال الحرب ضد السوفييت فقد نوسبت هذه الإستراتيجية بشكل جيد في الأجنحة الأمريكية والمقاومة الأفغانية، إذ كانت النخبة السياسية والعسكرية واثقة ان الهيكلية التقليدية والاجتماعية قد تتعايشان وتتحملان المدارس الأصولية التي كانت تنمو حولهما.

وقد أصبح الأمر صعباً لممارسة اللعب على طرفي السياج معاً في الوقت الذي أصبح ينظر فيه لأمريكا باعتبارها غازية ومحتملة لأفغانستان وأماكن أخرى في العالم الإسلامي. فقبل عشرين عاماً كانت أمريكا قادرة على تحويل الباكستان كأداة لاستخدامية الراديكالية الإسلامية. وتشعر اليوم الباكستان بصدمة واثراً كل ضربة توجهها أمريكا للعالم الإسلامي، وأي فشل أمريكي في هزيمة طالبان بدون حرب طويلة مدمرة وفشلها في كسب قلوب وعقول المسلمين في أفغانستان والباكستان فإن هذا سيضعف النظام الموالي لأمريكا في الباكستان نفسها.

وعليه تحاول الباكستان إقناع الناتو والحكومة الأفغانية للاعتراف بحتمية وجود «طالبان معتدلين» داخل أفغانستان، وتخلت عن سيطرتها على إقليم من أقاليمها - شمال وزيرستان - لطالبان. طبعاً فإن هذا يهدد بخلق قاعدة يمكن أن يستخدمها طالبان غير معتدلين لتوجيه ضربات لقوات الناتو في أفغانستان، كما أنها تعطي القاعدة والجماعات المتفرعة عنها ملجأً آمناً لاستيراد وتصدير المقاتلين والتكتيكات من العراق وغيره. فقد أصبحت الصلة الأفغانية - العراقية عبر القاعدة حقيقة واقعة، فالعمليات الانتحارية التي لم يكن الأفغان يعرفونها في الماضي هي إحدى التكتيكات التي تم استيرادها من العراق. ربما ستشاهد ما يمكن تسميته «تقعيد باكستان» و «بكسنة القاعدة».

في مشهد يظهر حجم السيطرة التي يملكها كلا الطرفين، كرازي يشجب مشرف الذي يشكو هو الآخر من عدم قدرته على عمل المزيد لمواجهة القاعدة. ومن هنا فإن أي هزيمة أمريكية في أفغانستان ستحمل في طياتها كل عناصر زعزعة الاستقرار لباكستان، وقد لا يصل إلى درجة الوضع الذي وصل نقطة اللاعودة كما في العراق ولكن الوضع في الباكستان يتدهور بشكل واضح، وكل جندي ورصاصة ودولار تستثمره أمريكا في العراق سيزيد من تدهور الأوضاع.

بعبارة قصيرة، نستطيع القول أن هناك قوس أزمة يمتد من المشرق العربي إلى شبه القارة الهندية، ولا يستطيع احد التكهن بالطريقة التي سيتم فيها نزع التوتر والأزمة في المستقبل القريب. سيتم اتخاذ قرارات في الأشهر القادمة التي قد تسهم في مفاصلة الأزمات هذه، وقد تنذر بالتحول نحو خيار آخر، أي قرارات هادئة وعقلانية. ومن أجل السير في هذا الاتجاه، هناك حاجة لقيادة في الغرب تفهم، إن القاعدة، البعث، حزب الله، حماس، سورية وإيران لا يمكن اختصارها واختزالها في المصطلح الإيديولوجي «إرهاب الشر». نحن بحاجة لقيادة قادرة على فهم الصلات، وتفكيك الروابط ونزع الفتيل من عناصر كل الأزمات. نحن بحاجة لطرف، مثلاً، مستعد للتعامل مع سورية، الدولة التي لا تهدد الولايات المتحدة، وقد ساعدت أمريكا في عدد من المناسبات، فلسورية مصالحها الوطنية الخاصة في اللعبة والتوصل لعقد صفقة حول الجولان التي هي أرض سورية، فاستمرار الاحتلال الإسرائيلي للجولان لن يجلب أي نفع على الولايات المتحدة. وبنفس الاتجاه، «فهم» مع حزب الله في لبنان، وحماس في فلسطين، الجماعتين اللتين تنطلقان في مواقفهما من أسس مبدئية تعبر عن مصالحهما الوطنية الخاصة، ونيابة عن المجتمعات التي تنتشران فيها كما أنهما، حماس وحزب الله، تعبران عن الكثير من مظاهر الظلم المشروعة، ولا يوجد بينهما من جهة وبين أمريكا من جهة أخرى، أي تعارض أو مواجهة عندما يتعلق الأمر بمصالح أمريكا الوطنية. ويمكن والحالة هذه، للولايات المتحدة سحب الكثير من الموضوعات من على الطاولة والتمسك بتعزيز مصالحها، بما في ذلك المساعدة في هزيمة المتطرفين الحقيقيين. هذه الجماعات ليست متشابهة، وهي ليست كالقاعدة أو جزءاً منها، ولو ترك لها الخيار فلن تصلح القاعدة، أكثر مما أصبحت فينتام أداة في يد «إمبراطورية الشر». وفي حالة التحدث معها بهدوء ومساواة فقد تتحول لجماعات معارضة يمكن التحكم بها وإدارتها.

لقد اقترحت مجموعة بيكر - هاميلتون هذا التغيير في الاتجاه، كما دعا الرئيس كارتر إلى نقاش مخلص وصادق حول سياسة الولايات المتحدة. ومع ذلك فهذه الأصوات البراغمية المعتدلة من داخل المؤسسة لقيت معارضة من الفصائل الداعية للعسكرة ومن المحافظين الجدد، والتي يبدو أن لها يدا على الرئيس والكونغرس. إن إصلاح الضرر الذي ارتكب يقتضي اعترافاً بالقرارات الخاطئة والتحول نحو إحداث تغييرات جديفة في الإستراتيجية. وقد تتطلب التخلي عن فكرة أن القرار العسكري من طرف واحد يمكن أن يقدم حلاً للمشاكل السياسية والاجتماعية المعقدة. وفوق كل هذا فقد يقتضي أيضاً التخلي عن الشعوب والأمم العربية الإسلامية المتنوعة ما هي إلا عناصر متداخلة ضمن إطار إيديولوجي واحد، ويمكن التلاعب بها لصالح شخص أو شيء آخر، سواء كانت الحاجات الجيوسياسية للقوى العظمى، أو مواصلة تقديم الدعم غير المشروط لإسرائيل، أو حاجة الغرب الدائمة للنفط.

العالم اليوم يتطلع لمشاهدة ان كانت الولايات المتحدة مستعدة للتخلي عن حريها الإيديولوجية لصالح قيادة واعية وذكية/تفاوض بحذر وعدل من موقع القوة السياسي، مشفوعا بتحريك حقيقي يعبر عن اهتمامات حقيقية. لا احد يطلب من الولايات المتحدة تجاهل الأجندات المتناقضة، ولكن ما يحتاجه العالم من أعظم قوة فيه، هو التوقف عن تحويل كل منافس محتمل لها - خاصة في العالم العربي والإسلامي - إلى عدو قاتل.

هوامش:

1. Robert Dreyfuss, Devil's Game: How the United States Helped Unleash Fundamentalist Islam (New York: Metropolitan Books, 2005), p.240.
2. Soref Symposium, April 29. 1991. (<http://web.archive.org/web/20041130090045/http://www.washingtoninstitute.org/pubs/soref/cheney.htm>) .
3. Joel Connelly, "In the Northwest: Bush-Cheney flip-flops cost America in blood," Seattle Post-Intelligencer, September 29, 2004 http://seattlepi.nwsource.com/connelly/192828_joel29.html
4. Le Nouvel Observateur (French edition), Jan 15-21, 1998, p. 76.
5. "What's Wrong with Cutting and Running?" Gen. (ret.) William E. Odom, The Lowell Sun (Lowell, Massachusetts), September 30, 2005.
6. Jorge Hirsch, "Nuking Iran Is Not Off the Table," July 6, 2006, www.antiwar.com/orig/hirsch.php?article=9 255. Philip Giraldi, "Deep Background," The American Conservative, August 1, 2005.
7. Michael Ledeen, "Creative Destruction: How to Wage a Revolutionary War.," National Review Online (http://www.nationalreview.com/contributors/l_edeem092001.shtm), September 20, 2001.
8. Sarah Shields, "Staticide, Not Civil War in Iraq," Common Dreams.org, December 6, 2006 (www.commondreams.org/views06/1208-32.htm). See also, Baruch Kimmerling, Politicide: Ariel Sharon's War against the Palestinians (Verso, 2003).
9. "A reality check: The three real issues between Israel and Lebanon," Report, Council for the National Interest, 14 July 2006 (<http://electronicintifada.net/v2/article5005.shtm>).
- 10 US- to double emergency equipment "stored in Israel," YNetNews.com, 12 December 2006 (<http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-3338927,00.html>)
- 11 Meron Rappaport, "IDF commander: We fired more than a million cluster bombs in Lebanon," Haaretz, 12 September 2006. . (www.haaretz.com/hasen/spages/761781.html)
- 12 "Siniora criticises West for failing "model democracy," Gulfnews.com (from Los Angeles Times-Washington Post), <http://archive.gulfnews.com/indepth/israelattacks/Lebanon/10054034.html>, July 21, 2006.
- 13 "U.S. Considers New Aid to Lebanese Armed Forces," The Chosun Ilbo (from Voice of America), December 12, 2006 (<http://english.chosun.com/w21data/html/news/200612/200612160010.html>). See also, Megan K. Stack, "Lebanon builds up security forces," Los Angeles Times, December 1, 2006 (<http://www.latimes.com/news/nationworld/world/la-fg-lebsunnis1dec01,0,7181812,full.story.coll=la-home-headlines>).
- 14 Alastair Crooke and Mark Perry, "How Hezbollah Defeated Israel, Parts 1 and 2," Counterpunch.org, October 12, 2006, (http://www.counterpunch.org/crooke_10122006.html) and October 13, 2006

(<http://www.counterpunch.org/crooke10132006.html>).

15 Chris Hedges, "Worse' than Apartheid." Truthdig.com (http://www.truthdig.com/report/item/20061218_worse_than_apartheid/)

16 Aaron Klein, "US Weapons Prompt Hamas Arms Race?" (www.wnd.com/news/article.asp?ARTICLE_ID=53411)

17 "A Clean Break: A New Strategy for Securing the Realm," The Institute for Advanced Strategic and Political Studies' Study Group on a New Israeli Strategy Toward 2000, Richard Perle, James Colbert, Charles Fairbanks, Jr., Douglas Feith, Robert Loewenberg, David Wurmser, and Meyrav Wurmser, et. al. (<http://www.iasps.org/strat1.htm>)

18 Tanya Reinhardt, "Introduction," The Road Map to Nowhere – Israel/Palestine since 2003. (www.zmag.org/content/showarticle.cfm?Item ID=11140).

19 Ahmed Rashid, "Accept Defeat by Taliban, Pakistan Tells Nato," Daily Telegraph (UK), November 30, 2006. (<http://www.telegraph.co.uk/news/main.jhtml?xml=/news/2006/11/29/wafghan29.xml>)

20 David Rohde, "Iran Is Seeking More Influence in Afghanistan," New York Times, December 27, 2006. (<http://www.nytimes.com/2006/12/27/world/asia/27afghan.ready.html?ei=5094&en=5e993b9fa9472987&hp=&ex=1167282000&partner=homepage&pagewanted=all>),